أبو عامر بن شهيد

بقلم الدكتور زكى مبارك

« ابن شهيد » اسم يطلق على عدة رجال من أعلام الأندلس، ينتسبون إلى شهيد بن عيسى ابن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البرابر ، وقيل إنه روى (١) وأشهر بني شهيد أبو عامر أحمد عبد الملك ، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموى ، وكان ابن شهيد الوزير معروفاً بالدهاء وحسن التدبير (٢)، وكان كذلك من أبرع الشعراء، وهو الذي يقول :

ترى البدر منها طالعاً فكأنما ... يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب

بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى ... ومفعمة الخلخال مقعمة القلب (٣)

من اللائى لم يرحلن فوق رواحل ... ولا سرن يوماً فى ركاب ولا ركب

ولا أبرزتهن المدام لنشوة ... وشدو كما تشدو القيان على الشرب

ولد أبو عامر سنة ٣٨٢هـ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة ، والشغف بملاعب الحسن والجمال ، ولم يقدر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك، لأن ثقل سمعه حجبه عن الاتصال بالملوك والوزراء (٤)، ولكنه انقاد لشبابه وهواه، وأسلم زمامه لفطرته وطبعه ، فجاء شعره ونثره فى أعلى درجات البيان .

كان حظ أبي عامر أن « يعيش » ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك (٥).

والعيش فى عرف أبي عامر بن شهيد، هو مجموعة من الحسن والخمر والأدب، فالحياة عنده: وجه أصبح، أو كأس مترعة، أو رسالة أنيقة ، أو قصيدة بديعة ، فإن خلت الدنيا من بعض ذلك فهى لغو وفضول وعيش الأديب فيها عبء ثقيل.

وماظن القارىء برجل يبيت فى الكنائس لينعم بما فيها من الخمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول فى وصف القسيس والدير والرهبان :

---

[١] نفح الطيب ص ٣٦١ ج٢ طبع ليدن [٢] نفح الطيب ص ٢٤٦ ج١ [٣] القلب بالقم سوار المرأة، والمقعم بالقاف من القعم بالتحريك، وهو كما نص الفيروزابادى ميل وارتفاع فى الاليتين، والمراد هنا وصف السوار بالارتفاع لامتلاء المعاصم (٤) انظر الذخيرة ج١ص١٢٣ [٥] وصفه صاحب نفح الطيب بالتهتك فى بطالته ج١ ص ٣٦٩ وتحدث عنه صاحب الذخيرة فقال : أبو عامر بن شهيد فتى الطرائف ـ كان ـ بقرطبة فى رقته وبراعة ظرفه خليعها المنهمك فى بطالته وأعجب الناس تفاوتاً بين قوله وفعله ، وأحكمهم فى هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه ج١ص ٢٦

ولرب حان قد شممت بديره ∗ خمر الصبا مزجت بصرف عصيره

في فتية جعلوا السرور شعارهم ∗ متصاغرين تخشعاً لكبيره

والقس مما شاء طول مقامنا ∗ يدعو بعود حولنا بزبوره

يهدي لنا بالراح كل غضنفر ∗ كالخشف خفره التماح خفيره [١]

يتناول الظرفاء فيه وشربهم ∗ لسلافه والآكل من خنزيره [٢]

أو يتعرض لجارية من أهل قرطبة ذهبت للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس، و ظبي يمرح في كناس) فتنصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره : فيتبعها ويقول:

وناظرة تحت طي القناع ∗ دعاها إلى الله بالخير داعي

سعت خفية تبتغي منزلا ∗ لوصل التبتل والانقطاع

فجاءت تهادى كمثل الرءوم ٣ ∗ تناغي غزالا بروض اليفاع [٤]

وجالت بموضعنا جولة ∗ فحل الربيع بتلك البقاع

أتتنا تبختر في مشيها ∗ فحلت بواد كثير السباع

وريعت حذاراً على طفلها ∗ فناديت ياهذه لاتراعي

غزالك تفرق منه الليوث ∗ وتنصاع منه كماة المصاع [٥]

فولت وللمسك في ذيلها ∗ على الأرض خط كذيل الشجاع [٦]

وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس إذ يقول :

إن الكريم إذا نالته مخمصة ∗ أبدى إلى الناس شبعاً وهو طيان [٧]

يحني الضلوع على مثل اللظى حرقاً ∗ والوجه غمر بماء البشر ملآن

أو حين يقول :

ألمت بالحب (٨) حتى لو دنا أجلي ∗ لما وجدت لطعم الموت من ألم

كلا الندى والهوى قدماً ولعت به (٩) ∗ ويلي من الحب أو ويلي من الكرم

وذكر ابن حيان أن أباعامر (كان من أصح الناس رأياً لمن استشاره، وأضلهم عنه في ذاته، وأشدهم جناية على حاله ونشابه ، وكان له في الكرم والجود انهماك مع شرب وبطالة حتى شارف

---

[١] الخفر: الممنوع ، والخشف بالتثليث ولد الظبي [٢] راجع نفح الطيب ص ٣٤٤ ج ١ (٣) الرءوم: الظبية الألوف [٤] واليفاع ما ارتفع من الأرض (٥) الكماة جمع كمي وهو الشجاع ، والمصاع القرب بالسيف [٦] الشجاع: الذكر من الحيات (٧) طيان : من الطوى وهو الجوع . وفي رواية أخرى ربا وهو ظمآن. انظر هامش النفح ص ٤١٠ ج ١ [٨] وفي رواية أخرى « كلفت بالحب » [٩] وفي رواية أخرى — وذادني كرمي عن ولهت به وهي أفصح من الرواية الثالثة «وفاتني كرمي »

الإملاق) [١] . ومن العجيب فى تشابه الحظوظ، أن النقاد الفرنسيين يصفون (لافونتين) بهذا الوصف : فيذكرون (أنه كان من أصح الناس رأيا لمن استشاره، وأضلهم عنه فى ذاته [٢]) وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب فى سوء الحال !

قلت: إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حباً شديداً، وكان يرى العيش كل العيش فى معاقرة الجمال والصهباء : فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساساً بكراهة الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعاً بألمه واستماته وتهالكه على التشبث بأذيال الحياة.

قال ابن بسام: « ولما طال بأبى عامر ألمه، وتزايد سقمه، وغلب عليه الفالج الذى عرض له فى مستهل ذى القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة، لم يبق منه حركة ولا تقلب، وكان يمشى إلى حاجته على عصا مرة، واعتمادا على إنسان مرة ، إلى قبل وفاته بعشرين يوماً فانه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه » [٣]

فلنتصور قسوة المرض التى تحمل رجلا كابن شهيد على التفكير فى الانتحار ، ولنقرأ محزونين قوله فى ذلك :

أنوح على نفسى وأندب نبلها	إذا أنا فى الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله فى كل حالة	على وأحكاماً تيقنت عدلها
أظل قعيد الداء تجنبنى العصا	على ضعف ساق أوهن السقم رجلها
ألا رب خصم قد كفيت وكربة	كشفت ودار كنت فى الحل وبلها
ورب قريض كالجريض [٤] بعثته	إلى خطبة لا ينكر الجمع فصلها
فمن مبلغ الفتيان أن أخاهم	أخو نكبة شنعاء ما كان شكلها
عليكم سلام من فتى عضه الردى	فلم ينس عيناً نبتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه	وداخلها حب يهون ثكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يقال على عنف المرض ظريف الحس والروح : فقد حدث أبو بكر المصحفى ؛ قال :

دخلت يوما على أبى عامر بن شهيد، وقد ابتدأت به علته التى مات منها، فتأنس بى وجرى الحديث إلى أن شكوت له تجنى بعض إخوانى على ونفاره عنى ، فقال: سأسعى لاصلاح ذات البين ، فاتفق لقائى لذلك المتجنى مع بعض إخوانى وأعزهم على ، فلما رآنى موليا عن ذلك الصديق أنكر على وسأل عن السبب الموجب فأخبره وزادا فى مشيها حتى لحقانى ؛ وعزم

---

[١] الذخيرة ج ١ ص ٢٩٤ [٢] استطاع La Fontaine أن يكون أحكم الناس، وأن يفرض حكمته فى شعره على الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل فى طليعة الحكماء على اختلاف الاجيال ، ولكنه عجز عن الظفر باستقامة الخلق فى حياته الشخصية فلم يكن لزوجته ولا لولده من رعايته نصيب. وسبحان من تفرد بالكمال !

[٣] الذخيرة ج ١ ص ١٦٥ [٤] الجريض بالجيم الريق ، وهى فى نسخة الذخيرة بالحاء المهملة.

على فى تكليم صاحبى ، وتعاتبنا عتاباً أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظما ، حتى جئنا دار أبى عامر ، فلما رآنا جميعاً ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده ؟ قلنا: قد كان ما كان ! فأطرق ملياً ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به أصلح بينى وبين من أهوى
أرسلت من كبدى الهوى فدرى كيف تداوى مواضع البلوى
ولى حقوق فى الحب ظاهرة لكن إلفى يعدها دعوى (١)

وحدث المصحفى أيضاً قال : دخلت عليه يوماً فى تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فيناقره ، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه، فقال له ذلك الغلام: هجوتنى يا أبا عامر دون أن تتثبت فى أمرى، ولا تعلم من سرى مايوجب ذلك ، فقال : على تكفيره بما يمحوه من القراطيس والصدور ، وكان ذلك أثر صلاة العشاء الأولى ، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا إليه فأنشدنا :

ألا بأبى زائر فى العتم بوجه يجلى سواد الظلم
تكتم بالليل فى ظله وهل يمكن الصبح أن يكتتم
أتى يستجير إلينا به كما جاور الباز رطب الغنم (٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل إلى أبى محمد ابن حزم هذه الأبيات :

ولما رأيت العيش ولى برأسه وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمنيت أنى ساكن فى عباءة بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
خليلى من ذاق المنية مرة فقد ذقتها خمسين قولة صادق
كأنى وقد حان ارتحالى ولم أفز قديماً من الدنيا بلمحة بارق
فمن يلغ عنى ابن حزم وكان لى يداً فى ملماتى وعند مضايقى
عليك سلام الله إنى مفارق وحسبك زاداً من حبيب مفارق
فلا تنس تأبينى إذا ما فقدتنى وتذكار أيامى وفضل خلائقى (٣)

وكان ابن شهيد يشعر أنه أهل لأن يبكى حين يموت ، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتياناً كأن وجوههم وجوه مصابيح النجوم الزواهر
إذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى بكوا بعيون كالسحاب المواطر
يقولون:قد أودى أبو عامر العلى أقلوا فقدماً مات أبناء عامر

---

[١] الذخيرة جـ١ ص١٦٣ [٢] القصيدة بقية طويلة يجدها القارئ في الذخيرة جـ١ص١٦٤ [٣] انظر جواب ابن حزم على هذه الأبيات في ص١٦٦ جـ١ من الذخيرة .

هو الموت لم يصرف بأجراس خاطب[١] بليغ ولم يعطف بأنفاس شاعر
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر قوى ولا للضعف مهجة صابر
عل عرى الجبار فى دار ملكه ويهفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجيباً أن تدانت منيتى يصدق فيها أولى أمر آخرى
ولكن عجيب أن بين جوانحى هوى كشرار الجمرة المتطاير
يحركنى والموت يحفز مهجتى (٢) ويرتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقاً عجيب ؛ فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة إلى محبوب له اسمه عمرو ، وكان حبه له مشهوراً يعرفه القريب والبعيد : وانتظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

اقرا السلام على الأصحاب أجمعهم وخص عمراً بأزكى نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصاً على وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه الليالى بألف غير مظلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيباً وحاشا بحبى فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حماك الله تقديمى
عشنا رفيقين فى بر الهوى زمناً حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشتتت نوب الأيام إلفتنا قسراً ولم يغنها طى وتنجيمى

وحسب القارىء أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها يودع إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أستودع الله إخوانى وعشرتهم وكل خرق إلى العلياء سباق
وفتية كنجوم الغرب نيرهم يهدى وصليهمو يودى باحراق
وكوكباً لى منهم كان مغربه قلبى ومشرقه ما بين أطواق
الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفى الصدر منى حر مشتاق
فان أعش فلعل الدهر يجمعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساقى
لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلق فيه غير أخلاق!
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يشلم الحب آدابى وأعراقى
إنى لأرمقه والموت يضغطنى فأنتضى فرجة ترتد أرماقى

ثم أوصى أن يدفن بجنب صديقه أبى الوليد الزجالى ، ويكتب على قبره فى لوح رخام هذه الكلمة :

(البقية على الصفحة رقم ٨٤)

---

[١] الخاطب : الخطيب ؛ وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ ؛ وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر (٢) يحفز : يقطع